عندما انتحث عن نظام جديد الديموقراطية

كتب احسان عبد القدوس :

الشعارات العامة التي تعتمد على الالفاظ الكبيرة لا يمكن ان تكون مجال مناقشة تستنزف جهد الفكر السياسي .. الحرية .. الديموقراطية .. العدالة الاجتماعية .. حق الشعب .. و .. و .. انها اشبه بترديد كلمات : الصدق .. الايمان .. الوفاء و .. و .. كلها عناوين عامة قرن عالينا اشبه بضربات الطبول ، ولكن الذي يجهد الفكر ويقوم عليه البناء السياسي هو تحديد وتنظيم ممارسة هذه الشعارات .. ممارسة الحرية ، وممارسة الديموقراطية ، وممارسة العدالة الاجتماعية ، وممارسة حق الشعب ، وهذا التحديد لنظم الممارسة هو الذي يدور حوله الخلاف في الرأي وفي الاتجاه وفي النيات السياسية .. كما ان نظم الممارسة قد تقوم لتحقيق سيطرة طبقة على طبقة مستغلة او مختفية تحت شعار الديموقراطية ، وقد سبق ان جربنا بعد الثورة ولسنوات طويلة حكما فرديا كان يقوم بيننا باسم الديموقراطية ايضا .. وفي ليبيا الان دعوة تقوم على ان الشعب اكبر من ان يقوم احد بتمثيله ، اى ان ينتخب نوابا له في برلمان او في اى تجمع سياسي ، وان الديموقراطية الصحيحة هي ان يحكم الشعب حكما مباشرا ، وبمعنى آخر ان تكون العلاقة بينه وبين مجلس قيادة الثورة او على الاصح بينه وبين قائد الثورة علاقة مباشرة بلا حاجة الى برلمان او نواب وهي صورة من صور ممارسة الحكم تؤكد الحكم الفردي المطلق ، اى الديكتاتورية ، ورغم ذلك فهي توضع تحت شعار الديموقراطية وتدعى تحقيق السلطة الشعبية ..

ومنذ ان انطلقنا في مناقشة نظام الحكم في مصر وكل الذين يشتركون في النقاش يرددون شعار الديموقراطية .. الذين ينادون بتعدد الاحزاب ، والذين يرفضون الاحزاب ويكتفون بالمنابر ، والذين يرفضون الاحزاب والمنابر ، والذين يريدون العودة الى ما قبل الثورة ، والذين يريدون تطوير الثورة الى صورة تضمن المستقبل ، كل هؤلاء يرددون شعار الحرية والديموقراطية دون ان تظهر حتى اليوم صورة جديدة محددة مفصلة لنظم ممارسة الحرية او الديموقراطية ، اى ممارسة حكم مصر .. وهو ما يترك كل المناقشات تدور وكأنها مناقشات في مقاه او صالونات حتى بعد ان تكونت اللجان الرسمية لحصر هذه المناقشات .. اى ان هذه المناقشات تدور دون ان يقف وراء اى اتجاه فيها تجمع شعبي له قيمته وقوته .. تجمع يتحرك ولا يكتفي بالاستماع والفرجة .. وكانت النتيجة ان اصبح الناس يعيشون في حيرة التساؤل .. الى اين ؟ وكيف ؟ .. ولم يكن هناك مخرج من هذه الحيرة الا انتظار كلمة القائد الاعلى .. اى اننا ما زلنا — بعد كل هذه الحرية — نقول رأينا ولكننا نعجز عن اتخاذ القرار .

وانا واحد من المواطنين الذين يجهدون فكرهم في محاولة تصور تنظيم جديد لممارسة الديموقراطية ، ومن بين ما تأثرت به ، وقد لا يكون احد آخر قد تأثر به ، هو تتبع مصير التنظيم الديموقراطي في الهند ، فالجيل الذي انتمي اليه منذ ان كان لا يزال في روضة الاطفال السياسة وهو متأثر بتتبع الحياة السياسية في الهند ربما لان كلتا الدولتين كانتا تحت سيطرة الاحتلال البريطاني ، وكانت النظم السياسية المتبعة في كل منهما هي نظم مفروضة عليه نقلا عن النظام البريطاني .. اى النظام الديموقراطي التقليدي .. وهذا هو ما يحدث دائما ، اى ان يفرض الاستعمار نظامه السياسي الخاص على الدولة التي يستعمرها وبصرف النظر عن اختلاف الوضع الاجتماعي والكيان الشعبي .. فالدولة التي تستعمرها فرنسا تمارس الديموقراطية الفرنسية ، والتي تستعمرها ايطاليا تمارس الديموقراطية الايطالية ، وهكذا ، وهو ما استمر حتى بعد تطور الوضع العالمي وظهور القوتين العظميين ، فأصبح الذين ينتمون الى الاتحاد السوفيتي يمارسون الديموقراطية السوفيتية — وهي ايضا تسمى ديموقراطية — والذين ينتمون الى الولايات المتحدة يمارسون الديموقراطية الامريكية ..

واختلفت الهند عن مصر بأنها استطاعت بممارسة هذه الديموقراطية ان تحقق استقلالها واستمرت بعد الاستقلال تمارس نفس التنظيم الديموقراطي ، القائم على تعدد الاحزاب ، رغم ان الحزب الحاكم لم يتغير حتى اليوم ، واستطاعت ان تحقق تقدما كبيرا ، وكان نهرو يقول « ان الديموقراطية مضيعة للوقت ولكنها تجنبنا من اخطاء كثيرة » .. وهذا ، بينما نفس النظام الديموقراطي القائم على تعدد الاحزاب يسقط وينزوى في كل دول آسيا وافريقيا ، ربما لان بريطانيا بدأت تسقط كدولة استعمارية وبدأ نظامها السياسي يسقط معها ، كما حدث بالنسبة للديموقراطية الفرنسية ..

اصبحت الهند هي الدولة الوحيدة بين دول العالم الثالث التي تمارس الديموقراطية التقليدية ..

وكانت حجة وأمل كل الذين يؤمنون بهذه الديموقراطية ..

وفجأة ..

بدأت الديموقراطية الحزبية تهتز في آخر معاقلها ..

بدأت تسقط في الهند ايضا ..

وكنت اتتبع ما ينشر في الصحف عن ازمة الديموقراطية في الهند وانا لا اريد ان اقتنع ، وكانت الصورة التي ترتسم في خيالي كأنها ثورة جديدة في الهند تقودها انديرا غاندي وحزب المؤتمر .. ثورة على الديموقراطية .. ولم احتمل هذا الخيال ، وقررت فجأة ان اسافر الى الهند لعلي استريح هناك من خيالي ..

وبعد ساعات من وصولي ، واثناء تناولنا بتفاصيل الاحداث ، احسست وانا في نيودلهي كأني في القاهرة عام ١٩٥٤ ، وهو العام الذي بدأ يتقرر فيه مصير الديموقراطية هنا في مصر .. نفس النتائج مع اختلاف الوسائل والمظاهر .. الاحكام العرفية او حالة الطوارىء .. الاعتقالات تشمل الالاف بينهم قادة وزعماء واعضاء في البرلمان .. الخوف من التجسس والمخابرات الى حد ان صديقا جاء يزورني في غرفتي بالفندق فتح الراديو واطلقه عاليا حتى يخمي نفسه اذا كان هناك جهاز يسجل ما يقوله لي ، تماما كما كان يحدث عندنا .. والرقابة على الصحف ، ولكن الرقابة لا تكفي ، ان الصحف هناك وهي اكثر من ثمانمائة صحيفة يومية يمتلك اغلبها رجال اعمال واصحاب شركات ضخمة لا تضمن الدولة دوائرهم ، ولم يتجه التفكير الى تأميم الصحافة كما حدث عندنا ولكن الفكر يتجه الى احتفاظ اصحاب الصحف بملكيتها مع اقامة مجلس في كل جريدة يصبح من حقه وحده السيطرة السياسية عليها ، ولا يصبح من حق صاحب الجريدة الا ان يأخذ نصيبه من الارباح ، وهو ما يسمى هناك « فك الارتباط » بين الصحف واصحابها ... و .. و .. وما عرفته وسمعته كثير ، واعجبني ما قيل لي بالنسبة لي ان كلمات مما يرددها هناك المسئولون كان يرددها بذاتها جمال عبد الناصر والمسئولون في مصر ايام التخلص من نظم الديموقراطية الحزبية التقليدية ..

والمفروض ان الانتخابات الهندية التي اجلت منذ بعد عام واحد ويعود بعدها كل شيء كما كان ، ولكني كنت اقول لكل من اقابله : انكم لن تعودوا ابدا الى نفس النظام الديموقراطي .. **يجب ان تبحثوا عن نظام جديد ديموقراطي ايضا .. وقد وعد جمال عبد الناصر عام ٥٤ باجراء الانتخابات وعودة الحياة النيابية كما كانت بعد ثلاث سنوات ولم تعد ابدا كما كانت الى ان مات ..** وكان كثيرون ممن اقابلهم في الهند يوافقونني على رأيي وبعضهم اعضاء في حزب المؤتمر ونواب في البرلمان ، الا السيدة انديرا غاندي فهي الوحيدة التي رفضت رأيي واصرت على ان الممارسة الديموقراطية ستعود كما كانت تماما بعد ان تعدل المعارضة عن اسلوبها واعتداءاتها ومحاولة اسقاط الحكومة احترامها للدستور الى ان تسقط — اذا سقطت — بفشلها في الانتخابات .. وهو كلام معناه انه اذا لم تعدل المعارضة عن اسلوبها فلن تعود الحياة الديموقراطية ..

وقد طال حديثي مع السيدة انديرا ربما لاني كنت اصر على عدم الاكتفاء بترديد الشعارات العامة ، وانتهى اللقاء قبل ان ينتهي الحديث ، ولم يكن حديثا صحفيا يعد للنشر ، ومنذ اكثر من عشرين عاما وانا لا انشر احاديث صحفية مع احد ، ربما لاني احس بأني لو اسكت بنفسي لاسجل ما اسمعه او لو وضعت امام المتحدث جهاز تسجيل فسأتقلد من الاحساس بأنه يتحدث حديثا خاصا الى الاحساس بأنه يتحدث حديثا عاما فلا يقول كل شيء ولا يتفعل بالمناقشة ، ولهذا كنت انا الذي اعتذرت عن وضع جهاز تسجيل بيني وبين السيدة انديرا وربما لهذا طالت المناقشة بيني وبينها ، اى لانها مناقشة ليست امام ميكروفون ..

وقد اقتنعت بكل الاسباب التي ادت الى اعلان حالة الطوارىء في الهند .. ولكن ما الذي ادى الى هذه الاسباب ؟

ربما كان ابرز مظاهر التطور في سياسة الهند هو موقفها بين القوتين المتطرفتين ، فقد اصبحت اقرب الى الاتحاد السوفيتي وابعد عن الولايات المتحدة ، حتى اصبحت تتهم صراحة بأنها مستسلمة للسوفيت ، وفي الوقت نفسه اصبحت في حالة عداء صريح مع الصين .. فهل يكون هذا الموقف الخارجي قد انعكس على الحالة الداخلية وادى الى توقف الحياة الديموقراطية .. ان السيدة انديرا غاندي تهاجم امريكا والصين صراحة وتتهمهما بالتدخل ، ولكن الجانب الاخر يهاجم الاتحاد السوفيتي صراحة ايضا ويتهمه بمحاولة فرض اسلوبه في الحكم

وهذا ما كان يحدث عندنا كلما زاد التقارب مع الاتحاد السوفيتي زاد التقارب ايضا مع النظام السياسي السوفيتي فاتسع تطبيق الاشتراكية ، واتخذت المؤسسات السياسية شكلا جديدا ، وتولى مراكز المسئولية اشخاص معروفون برضاء موسكو عنهم .. وربما كان

[البقية صفحة ٣]